العددان الأول والثانى

« السنة الحادية عشرة »

(جمادى الثانى: رمضان سنة ١٣٦٣ — يوليه : أكتوبر سنة ١٩٤٤)

صحيفة دار العلوم

(١٩٢٤)

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

المدير

محمد نجيب جبابة

رئيس التحرير

محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً

خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

لأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

شخصية امرىء القيس

للأستاذ علي النجدي ناصف

إذا تحدث الناس عن الشعر العربي : أيه أعرق فناً ، وأكثر ابتكارا ، وأفخم بنية ، وأيه أجهر فى الزمان صوتاً ، وأشيع رواية ، وأبعد فى الأدب أثرا — كان شعر امرىء القيس حقيقا أن يذكر أولا ، وأن يجرى الحديث عنه على سنن من الاعتراف وقلة الاختلاف يندر أن يجرى على مثله فى شعر أى شاعر آخر .

وإذا تحدث الناس عن شعر الانسانية عامة ، يعلو على حدود الأوطان ، ويتحرر من قيود : الأجناس واللغات ، كان شعر امرىء القيس أيضا حقيقا أن يتحدثوا عنه ، وأن يجدوا فيه من دلائل العبقرية والاختصاص بالمزية مايجعل الحديث عنه طويلا والاعجاب به عظيما . فلامرىء القيس من العمل للشعر والتأثير فيه مالا نعرف مثله لشاعر آخر من شعراء العربية ، لقد فتح للشعراء أبوابا ، ومهد لهم سبلا ، ودلهم على أفانين فى التصوير والتعبير لاعهد لهم بها من قبل ، ثم هو قد أقام من شعره معرضاً فنياً حافلا ، تتراءى فيه سمات عصره ومعالم بيئته ، وتتمثل فيه أهواء نفسه ومواجد حسه ولمحات ذهنه واضطراب الأحوال به ، كأحسن ما يكون التمثل : صدق تعبير ، وبلاغة تأثير . ويوشك شعره من هذه الناحية أن يكون ترجمة لحياته ، واشراقه باقية فى طلبات عصره وبيئته .

ولقد يكون من الاسراف أن نقول عن أعمال امرىء القيس للشعر مثل ماقال الأقدمون عن الأوليات التى ينسبون اليه ، فنزعم أنه لم يسبق إلى شىء منها ، وأن الشعراء الذين تقدموه لم يخلفوا فى أشعارهم مايدل على أنهم عرفوها أو فكروا فيها ولكنا نعتقد أننا لانغلو ولا نجاوز الحقيقة الواقعة حين نقول أن امرأ القيس يتفرد

ن هذا المجال بمزيتين ، هيهات أن يكون له فيهما شريك أو منازع من الذين سبقوه. لأولى أن أعماله للشعر لم تقع له عفوا بلا وعى ولاقصد ، لأنه أكثر منها ونوع بها على نحو لايتهيأ لغير عامل مريد . والأخرى أنه بفضل هذه الكثرة وهذا التنويع دلفت اليها الشعراء وأغراهم باصطناعها ، فتناولوها بالتقليد والمحاكاة ، أو بالتحوير التهذيب ، أو بالاضافة اليها والتوليد منها أو الابتكار على مثالها : كل شاعر وما سر له ، وكل نوع على حسب طبيعته ، فكان للشعر من ذلك خير كثير . ومن ذه الأعمال :

١ — وضع الأسس الأولى لمحسنات البديع . فقد أكثر فى شعره من صريع ، لايختص به مطالع القصائد ، ولكن يشيعه فى أثنائها أيضا .

كقوله :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال

وقوله :

أجارتنا ما فات ليس يثوب وماهو آت فى الزمان قريب

وقوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل

وقوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فاجملى

واستكثر كذلك من الترصيع أو ما يقاربه

كقوله

فللساق ألهوب ، وللسوط درة وللزجر منى وقع أهوج منعب (١)

وقوله :

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٢)

---

١) الالهوب : شدة جرى الفرس . الدرة : يراد بها الجرى اللين . المنعب : الفرس الجواد منته فى البدو .

٢) الايطل : الخاصرة الارخاء ، نوع من عدو الذئب . التقريب وضع الرجلين موضع ، فى العدو التتفل ولد الثعلب .

وقوله :

ألس الضروس ، خنى الضلوع تبوع ، طلوب، نشيط ، أشر (١)

وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام وريح الخزامى ، ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر (٢)

وقوله :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال (٣)

وقوله :

فتور القيام ، قطيع الكلا م ، تفترعن ذى غروب خصر

وقوله :

وقافها صرم ، وجريها حذم ولحمها زيم ، والبطن مقبوب (٤)

ونلاحظ هنا أن التصريع فى الشعر يعادل السجع فى النثر ، وأن الترصيع مزاج من السجع والموازنة جميعا . فهل كان السجع إذا هو النموذج الذى صنع التصريع على مثاله ؟ وهل كان التزامه فى النثر أو انتثاره فيه هو الذى أغرى بالاستكثار من التصريع وبثه فى خلال القصيد ؟ وهل كان السجع أيضا صنو الموازنة وقسيمها فى صنع الترصيع ؟ وهل كان الترصيع هو الحلقة الأولى والترصيع هو الحلقة الثانية فى سلسلة زخارف البديع ؟ لاشىء من هذا ببعيد . ونلاحظ هنا أيضا أن موسيقا الترصيع تجرى على نمط ما من موسيقا الطبيعة فى البادية وهذه هى الأبيات المرصعة التى أسلفنا روايتها ، عد اليها فاقرأها ، وألق بالك الى ماتحدث موسيقاها من حركات ، وترسل

(١) الالس الملتصق لاسنان بعضها الى بعض

(٢) المستحر : المصوت فى السجر .

(٣) الشظى : عظم لازق بالذراع . العبل : الضخم . الشوى : اليدان والرجلان . الشنج : المنقبض النسا : عرق فى الفخذ الحجبات : رءوس عظام الوركين الفال : اللحم الذى على الورك

(٤) الوقاف الموانفة فى حرب أو خصومة الضرم : العدو الجذم المناضى الزيم : الشديد الاكتناز المقبوب : الضامر

من أنغام ، عسى أن تحس منها كما أحسست أثارة من اهتزاز الركبان على ظهور الابل جيئة وذهابا ، وعسى أن تسمع منها مثل ماسمعت صدى تجاوب الماشية الراعية ، وتنسم الريح اللاهثة ، يتناوحان على نحو مامن تقارب المسافات والأقدار ، وتماثل النغم والايقاع . فهل كانت موسيقا البادية هى ملهمة فكرة الترصيع ؟ وكان السجع والموازنة مادته فى الخلق والتصنيع : من الطبيعة كانت الروح والفكرة ، ومن السجع كان الشكل والهيئة . ربما كان ذلك .

٢ — التلطف فى الكناية والاحتيال لخفائها ؛ حتى تجىء فى بعض الاحيان غاية من غايات الابداع ودقة التعبير . والكناية على هذه الصورة تعد فى نفسها مطلبا عسيرا ، لاينال إلا بالمرانة وطول المصابرة ، فكيف بها لجاهلى تأخذه البداوة من كل جانب ، وتوشك الجفوة من حوله أن تكون السمة الغالبة التى يتميز بها كل شىء على الرغم من بيئته الملكية الخاصة ؟ لكنها العبقرية تسمو بصاحبها على حكم المألف والعادة ، فاذا هو شىء فريد فى نوعه ، بل طرفة باكرة من طرف العجائب يدو قبل أوانها الموعود . ومن ذلك قوله :

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

وقوله :

كأن الفتى لم يغن فى الناس ساعة اذا اختلف اللحيان عند الجريض

وقوله :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى إذلال

٣ — الغزل القصصى ، يصف فيه كيف دب إلى محبوبته والليل ساج والطبيعة فية ، وكيف إستطاع فى غفلة الحراس والرقباء أن يبلغ دارها ويقتحم مخدعها ، يروى الحوار الذى يدور بينهما وقد جاءها بهذه الزيارة غير مبال بخطر ولا مكترث ار فضيحة ، فهى تتساءل تساؤل الحائر المنكر أو الحاذر المشفق ، وهو يجيب ا جواب العابث المستهتر والمحاول المصر ، ثم لايزال يحتال لهـا ويهون الأمر ها ، حتى تأنس به وتسلس له ويصير الأمر بينهما إلى مايريد . وقد حاكاه عمر بن

أبى ربيعة فى هذه الطريقه فأحسن المحاكاة ، وبلغ فى الافتتان فيها غاية مايمكن أن يبلغ الفرع من أصله والتلميذ من أستاذه ، وفى المعلقة وغيرها صور من هذا القصص، نكتفى بالإشارة إليها عن التمثيل لها.

٤ — هذه الأوليات التى يمدها القدماء له ، وينسبون فضلها إليه . ومنها فيما يقول صاحب طبقات الشعراء : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، وتشبيه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد (١) .

ولقد يخطر بالبال بادى الرأى أن استحسان هذه الأوليات إنما صدر فى بدايته عن رأى عابر أو نظرة غير فاحصة ، ثم جرى الناس من بعد على روايته والموافقة عليه دون نقد ولا مراجعه ، إيثارا لحسن الظن ، أو التماسا للعافية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، فإذا لها حرمة الرأى القديم ، يواتيه الحظر باتساع الشهرة واستيحار الرواية ، مع أنه فى الواقع لايثبت على النقد والتمحيص . نعم قد يخطر هذا وشبهه بالبال ، وقد يكون له حظ من الوجاهة والقبول ، لولا أن الواقع يخالفه كما سيأتى ، ولولا أن الشعراء أنفسهم وهم أصحاب الرأى فى الموضوع قد أكبروها منه ، وحاكوه فيها أو فى بعضها لعهده وفيما خلف من بعده إلى العصور الأخيرة .

على أننا سنقصر الحديث هنا على الأوليتين : الأولى ، والأخيرة من هـــذه الأوليات ، اتقاء الإطالة والتكرار .

فأما استيقاف الصحب والبكاء فى ديار الأحبة فلا أدرى كيف عدوهما من أولياته مع أنه يعترف فى قصيدة : كأن الديار غشيتها بسجام — بأن ابن حذام ، وهو شاعر طائى قديم — قد سبقه إليهما ، وأنه إنما يقلده فيهما ولا مزيد . قال :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن حذام .

اللهم إلا أن يكون امرؤ القيس بما نوع فيهما وزاد عليهما قد استحق فى رأيهم أن يختص بهما ، ويعد صاحب فكرتهما .

(١) طبقات الشعراء : ٢٧

والذى لاينبغى أن يكون فيه خلاف أياما يكن صاحبهما ـ أنهما تنطويان لى لفتة شعرية ، هيهات أن يلتفت إليها إلا شاعر مطبوع ، ولو أنها لطول مالاكتها لألسنة وكثرة مالهجت بها الكتب تبدو شيئا غير ذى خطر ولا قيمه . فما هى إلا ، مر بدوى مرتحل بدار محبوبته ، فوقف بين أطلالها ، واستوقف صحبه معه ، د يبكى جزعا ، وهم يكون إسعادا له ومشاركة . وهى بهذا القدر تنطوى على أصل ن أصول الشاعرية فى أسمى مراتبها . وهو التعبير الصادق عن شعور صادق أشد يكون قوة وتوهجا . فالشاعر قد قضى بعض الوقت فى جوار الحبيب ناعما مغتبطا كن الأقدار كدأبها لم تلبث أن فرقت بينهما ، فبدل من القرب بعدا ، ومن الأنس حشة ، ومن الغبطة هما . حتى إذا سكنت ثائرته ، وعادت إليـــه نفسه أو كادت احت له الأقدار فى بعض رحلاته أن يجتاز بدار الحبيب ، معهد غرامه ، ودنيا علامه . وهاهو ذا يدنو منها ، ويشخص ببصره إليها ، فيراها أطلالا ورسوما ، عاث فيها البلى ، ونالت منها الأحداث ، فإذا هى قفر خلاء ، لايرى فيها غير حش الصحراء ، يختلف إليها ، أو يقيم فيها آمنا مطمئنا . وهاهو ذا تهيجه الذكرى ، لح عليه اللوعة ، ويدعوه الحنين والوفاء أن يلم بها شيئا قليلا ، ليقضى حقا لازما ، تمثل عهدا خاليا ، لكنه يحس ضعفا عن التجلد واحتمال ماتكلفه هذه الإلمامة آلام ، فيتوجه إلى صحبه : يسألهم أن يقفوا معه ، ويشركوه فى بكائه ، فيستجيبوا كراما أوفياء . وهاهم أولاء يكفون عن البكاء قبله ، لأنهم لايجدون مثل وجده ، ركهم له رحمة وإشفاق ، فيقبلون عليه ينصحون له أن يرفق بنفسه ، ويردها إلى دوء والتجمل :

وهذا هو الإحساس الطبيعى الذى تحسه الفطرة المستقيمة حين تتعرض لمثل عرض له امرؤ القيس ، حين هدى إلى هذه الأولية . والتصوير الذى صورها به التصوير القويم ، الذى يعبر عنها فى أمانة وصدق .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى و تجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

ومن الممكن أن تجيش النفس بهذا الإحساس فى أحوال غير حال المرور بدار الحبيب ، لكنه حينئذ لايبلغ من حدة الثورة وعنف المغالبة مثل الذى يبلغ فى هذه الحال خاصة ، لأن الإحساس فيها يكون عن الملابسة والعيان ، وليس كمثلهما منبه للذاكرة ، ومعين على التصور وابتعاث الخيال .

وأما قيد الأوابد فأولية غريبة حقا ، لانظن أن مثلها فى تقدير الآراء المعجلة — يخطر بالبال فى المقام الذى خطرت فيه ببال الشاعر ، فضلا عن أن تصلح لتمثيل السرعة فى بعض غاياتها ، لأن التفكير فى السرعة حقيق أن يخطر فى الذهن صور الخفة والانطلاق لاصور التقيد والاحتباس ، اللهم إلا كما يخطر كل معنى عارض بينه وبين المعنى الأصيل مناقضة أو شىء من المخالفة والعناد . والألمعية وحدها هى التى تستطيع بأساليبها البارعة وقدرتها القاهرة أن تفيد من مثل هذا التخالف أياما يكن نوعه ، حيث لايظن أن فى الإمكان الإفادة منه ، فإذا هو على وفاق عجيب مع ما تكون فيه من شأن أو تقصد إليه من مراد . حتى لقد يبدو بعد ذلك أن ليس أصلح منه للمقام الذى حل فيه ولا المعنى الذى اختير له . وامرؤ القيس فى اصطناع القيد هاهنا لم يشأ أن يضيف إلى معناه شيئا أو يولد منه شيئا ، لكنه اتخذ منه على علاته أداة تعبير عن معناه من تمثيل سرعة الجواد وقدرته على إدراك الأوابد . فهى فيما نظن أن الشاعر قد تصوره — لاتكاد تبين الجواد ، وتدرك أنه يقصدها حتى تنطلق عدوا على وجهها فى طلب النجاة ، ولكنها لاتلبث أن تسمع وقع سنابكه رفيقا خفيا أول الأمر ، ثم عنيفا بينا بعد ذلك ، ولاتلبث أيضا أن تسمع على الأثر جيشان صدره وتردد أنفاسه ، فيركبها الفزع ، ويثقلها الاعياء ، ويتنازعها العثار والاضطراب ، فإذا هى مقيدة حبيسة ، لم يغن عنها أنها أوابد ، وأن الأرض أمامها

براح واسعة الفجاج ، وأن المدى بينها وبين الجواد كان بعيدا فى مستهل السباق .

والآن ؛ هلم إلى جانب آخر من جوانب فن الشاعر وشخصيته ، فأظهر خصوصياته الفنية وأدلها على شخصيته — يمكن أن نجملها فى كلمة واحدة ، وهى (الاشتراكية الفكرية) ، ونعنى بها تفكيرا امرىء القيس فى قرائه ، وحرصه على أن يكون مفهوما لديهم ، ليشركوه فى المشاهدة والتذوق والاحساس . وهو يتذرع إلى ذلك بأربع وسائل : (١) التشبية (٢) والقيود (٣) والاستطراد (٤) وتحرى الحياة والوضوح فى الألفاظ .

١ — أما التشبية فقد أكثر منه ، ووفق فيه إلى غاية لا أعرف لها نظيرا فى شعر شاعر آخر . وأوضح مايرى ذلك فى المعلقة ، فقد أورد فيها أكثر من خمسين تشبيها كلها محكم سديد وربما اشتمل البيت الواحد على أكثر من تشبيه واحد ، كقوله :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل .

وقوله :

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان ، وتقريب تتفل

وربما شبه الشىء الواحد بشيئين اثنين ، كقوله :

كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس ، أوصلاية حنظل

وقوله :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى ، أومساويك إسحل

وتدل تشبيهاته على سعة الأفق ، ووفرة المادة ، وقوة الملاحظة ، والاحاطة بطبائع الاشياء وكثير من خصائصها ، لانه يجلبها من كل مكان عرفه ، ويصطنعها من كل شىء رآه فى الطبيعة أو فى بيئته العامة والخاصة . أنظر إلى قوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوله :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل
فيالك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشيرة مخول

ولا أعرف له في هذه الخاصية شبيها من شعراء الجاهلية ، فهذا زهير مثلا على ماعرف به من التروى في نظم الشعر ، وطول الوقوف عنده ، والمراجعة له — لاتكاد تخرج تشبيهاته في المعلقة عن إلا بل وأحوالها من اللقاح والنتاج ، والصدر والورد ، والرعي والظمء ، وما إلى ذلك من أحوال .

٢ — والقيود كالتشبيه قصدا وغاية ، وإن اختلفا مكانة وعملا . هو للايضاح أو التقريب أو اثارة الحس . وهي لوضع الحدود ، وتقديرا الأبعاد ، وبيان النسب والأحوال ، وتعيين الأمكنة والاوقات ، والتفريق بين الصفات والاشكال . فهي أكثر تشعبا . وأدق مسلكا . وأشد تنويعا للمعاني . وهذا مثال من تنابعها في قصيدة ألا انعم صباحا أيها الطلل البالي :

اذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال (١)
كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال (٢)
لطيفة طي الكشح غير مفاضة اذا انفتلت مرتجة غير متفال (٣)
تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد ماناام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فأنت اذ تقرأ هذه الابيات وأشباهها — لاتكاد تحس حاجة الى السؤال عن

(١) هونة : لينة مجبال : غليظة الخلق جافية
(٢) الحقف : الكثير من الرمل . النقا : الكثيب
(٣) متفال : كريهة الرائحة

ب شيء أو مكانه . أو الزمن الذى وقع فيه . أو الطريقة التى وقع بها . أو نحو
ك . لان الشاعر يفكر فيك . ويعنى بك . فهو لذلك يجتنبك الحيرة . ويكفيك
ونة السؤال .

٣ — والاستطراد تدفعه اليه الرغبة الملحة فى تبيين دقائق الاشياء . وتتبع
صائصها . ومنه قوله يصف تألق الجلى على لبة محبوبته :

كأن على لباتها جمر مصطل أصاب غضى جزلا وكف يأجزال

وهبت له ريح بمختلف الصبا صبا وشمال فى منازل قفال

ولقد تبلغ به الرغبة فى التبيين ، فيمضى فيما استطرد إليه : يفصل أحواله ، ويطيل
حديث عنه ، كأنه موضوع قائم بنفسه كقوله يصف فرسه :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وكان عداء الوحش منى على بال (١)

كأنى بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملال (٢)

تخطف خزان الشربة بالضحا وقد حجرت منه ثعالب أورال (٣)

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ويظهر أن هذا المذهب قد وقع من شعراء الجاهلية موقع الاستحسان ، فحاكوه
كما حاكوه فى كثير غيره ، ففى معلقة عنترة يصف ثغر حبيبته ، ومعلقة لبيد يصف
ته ، ومعلقة عمرو بن كلثوم يفخر بعزة قومه وامتناع قناتهم على الاعداء ، ومعلقة
حارث بن حلزة يصف ثبات قومة للاحداث وقلة اكتراثهم لها . وفى غير ذلك من
ملقات والقصائد أمثلة للاستطراد على هذا النحو .

ولا يبعد أن يكون من أسباب الاستطراد وكثرته على ما وصفنا غلبة البداوة
العرب واقترابهم من الفطرة فى مذاهب التفكير ، فالعلم ولا ريب يهذب الفكر ،
حدد أهدافه ، ويوضح له المسالك التى تنفذ به إلى كل هدف ، ولا كذلك البداوة

---

١) عادى : والى . فتخاء الجناحين : طويلاتها فى لين . لقوة : سريعة الخطف . طأطأ يده
: أرسلها به للركض . شملال : سريعة

٢) الخزان : جمع خزز كعنب ، وهو ذكر الارانب

٣) الشربة وأورال موضعان

وإن فيما نرى من المتعلمين وغيرهم من الاطفال ومن لاحظ له من العلم لشاهدا عدلا فأولئك يعبرون عن معانيهم قصدا ، لا يكادون يميلون هنا أو هناك إلا بمقدار . وهؤلاء يكثر فى كلامهم التشعب والشرود . وربما ذهب بهم اللف والدوران إلى أبعد المذاهب وأوهنها صلة بما يبتغون .

(٤) ولقد وفق الشاعر فى انتخاب ألفاظه كل التوفيق ، بالرغم من طبيعة البيئة وأحوال العصر يومئذ ، فنحن إذ نقرأ شعره ، ونتعقب مفرداته بالتمحيص والنقد نجد جمهرتها الغالبة بل كثرتها البالغة حية سائغة ، كتب لها الخلود والتداول جيلا بعد جيل . بل نجد كثيرا منها يمتاز بحظ عظيم من العذوبة وصفاء الرونق ولطف الايقاع ، ولا تكاد تعثر بينها على ألفاظ جافية أو غليظة متوعرة إلا قليلا ، وعلى مسافات غير متقاربة ، تتلاحق بينها أنماط من المفردات الفخمة ، أو الكريمة المعرقة ، أو الحلوة الفاخرة . فان من يستطيع أن يسمو بالكثير من خواطره ومعانيه على اعتبارات الزمان والمكان — لا يتعاظمه بلا خلاف أن يبلغ مثل ذلك بالفاظه أيضا . وإنما تبدو هذه الخاصة على أشدها من التمكن والوضوح فى شعره قبل مقتل أبيه ، أما بعد ذلك فتشيع فى مفرداته السهولة واللين . ومن شعره فى الطور الأول :

وبيت عذارى يرم دجن ولجته ... يطفن بجباء للرافق مكسال (١)
سباط البنان والعرانين والقنا ... لطاف الخصور فى تمام وإكمال
نواعم يتبعن الهوى سبل الردى ... يقلن لاهل الحلم ضل بتضلال
كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال (٢)

ومن شعره فى الطور الأخير :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فأصبحت ... كخط زبور فى مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت ... عقابيل سقم من ضمير وأشجان

(١) الجباء : الثابتة عظم المرافق لكثرة لحمها .
(٢) سبأ الخمر : اشتراها .

فسحت دموعى فى الرداء كأنها كلى من شعيب ذات سح وتهتان (١)

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

هذه ملامح شخصيته الفنية ، أما شخصيته الذاتية فكانت قبل محنته فى أبي شخصية الخلى العابث ، بل الخليع السادر ، طوعت له سعة المال وجاه السلطان كل ما تطيق الحياة الماجنة لعهده من بهجة ومتاع : نساء وخمر ، وغناء وقصف ، ولعب وصيد . ثم أغراه بها صبوة الشباب ، وغواية الأصحاب من الشذاذ والصعاليك ، ففتن بها ، وتهالك عليها ، لا يكاد يقف فيها عند حد ، ولا يصبر منها على لون ، ولا يبالى فى الاستمتاع بها حرمة ولا إثما . وكانت النساء أحب المتع إليه ، وأشدها فتنة له ، على ما كان يلقى فى سبيلهن من عنت ، وما كان يتعرض له من خطر . نهاه أبوه عنهن فلم يستمع له ، فنفاه وتبرأ منه . ثم كان فى دنيه إليهن عرضة لفتك البعولة ومصاولة الحراس . فهل تراه مع هذا كله قد أعرض عنهن ؟ أو قلل من التولع بهن ؟ هيهات .

فأصبحت معشوقا ، وأصبح بعلها عليه القتام سيىء الظن والبال

يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى ، والمرء ليس بقتال

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى

وكان فى النزوع إليهن نهما ملتهب الحس ، لا تقنعه المتعة على طريقة واحدة ، لا يغنى فيها بحاسة عن حاسة ، بل يلتمسها من كل سبيل ، وينقلها إلى نفسه من كل سبيل كذلك : من السمع والبصر ، ومن الشم والذوق ، ومن الذكر والخيال ، لا تغنى احدة عن أختها ، ولا يقوم بعضها مقام كلها ، فلكل أسلوب خاص فى الأداء ، ولون معين من اللذة ، ولا بد له من كل أسلوب ومن كل لون . وهو لهذا يصف محاسنهن ، استقصاء وتفصيل ، يندر أن يجاريه فيها شاعر آخر . وربما تورط من جراء ذلك التكرار والمداخلة . قال :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على ، هضيم الكشح ريا المخلخل

(١) الشعيب : السقاء البالى

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وقال :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل

وهو يروى أحاديثه اليهن ، وأحاديثهن اليه فى دقة وضبط ، يبدوان من هذا التساوق المطرد فى الحوار على مدار الأخذ والرد ، ثم من هذا التطابق بين المقام ومايجرى فيه من حديث :

فقالت : سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا ، فإن من حديث ولا صالى

ولا ينسى أن يذكر طيب رياهن ، وأن يقرن بها ماعسى أن يجانسها من الطيوب الأخر :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وله قصيدة يذكر فيها أنه ودع الصبا ، ونزع عن باطله إلا أربع خلال ، لا يزال بها مولعا ، وعليها حريصا ، فجعل منها تشمم النساء حين تفوح رياهن :

ومنهن سوف الخود قد بلها الندى تراقب منظوم التمائم مرضعا .(١)

ويصف الريق فيفتن فى وصفه ويمثل طعمه ونشره والاحساس به تمثيل المتذوق المنهوم :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

يعل بها برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

وربما شبه المرأة بالشجرة المثمرة ، وشبه المتع التى ينالها منها بالجنى الذى يناله المجتنى من الشجرة :

---

(١) السوف : الشم

فقلت لها : سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينا من جناك المعلل

وهو يذكر أحوالهن معه ، وأحواله معهن فى صراحة وتفصيل ؛ غير مفرق بين ما يجب كتمانه وما يصح الجهر به . تنويعا للمتعة ، وتعديدا لطرائقها : يريد أن يصيبها من التصور والحكاية ، مثل ما أصابها من سواها . وهن على باله أبدا ، حتى فى المواطن التى تقترب فيها النفس من مواقف التماسك والجد ، ويقل فيها التفكر فى المجون والمغازلة :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل

بل إن الأحداث التى تتابعت عليه بعد مقتل أبيه لم تنسه ذكرهن ولا التشبيب بهن :

ولم ينسنى ماقد لقيت ظعائنا وخلالها كالقر يوما مخدرا

صحيح أن غزل الجاهلين يوشك أن يكون مادياً كله ، يقوم على حكاية الحال الجارية ، ووصف المحاسن المرئية ، ويقل فيه تصوير العواطف ، والافتنان فى شكوى الصبابة والغرام ولكن يظل امرؤ القيس مع ذلك متفردا فى غزله بهذه الرغبة الغالبة ، بل العرام الجامح ، تكاد تراه فى كل بيت ، بل فى كل خطرة من بيت .

أما شخصيته بعد مقتل أبيه فشخصية السيد الماجد ، ترزؤه الأيام بالخطب الجسيم ، وتتابع الأحداث من حوله بما لا يواتيه فى عناد وإصرار ، فيتطرق إلى قلبه الحزن والألم ، وقد يتحرك لسانه بالتململ والشكوى ، ولكنه أبدا معتز كريم ، لا يتخشع ولا يستسلم بل لا يكاد يفتر عن الدأب والمحاولة ، ولا يقنع بما دون الغاية من أمره ، فان يظفر بها كاملة وإلا فبحسبه أنه أبلى عذراً :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان بدلت آخرا
كذلك جدى ، لا أصاحب صاحبا من الناس ، إلا خانني وتغيرا

وقال : فإما ترينى لا أغمض ساعة من الليل إلا أن أكب فأنعسا
فيارب مكروب كررت وراءه وطأعنت عنه الخيل حتى تنفسا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

(١) القر : الهودج . مخدرا : مستورا : يشبه ثياب الظعائن بستائر الهودج .

وربما نزل به الخطب في محنته هذه ، فتزيده إلى مابه منها وإنه لكثير ، فيلقاه هازئا متهكما ، يفتر ثغره عن ابتسامة حزينة فاترة ، ولكنها راضية مطمئنة . روى أن نفراً من بني نبهان خرجوا على رواحل له ، يطلبون إبله التي أغير عليها وأخذت حين كان في جوار المعلى بن تيم ، فغلب أولئك النفر على الرواحل أيضا وعادوا إلى الشاعر الحزين بلا شيء ، فأعاضه الناس منها أعنزا ، جمعوها له ، ليحلبها ، ويعيش من لبنها ، فقال في ذلك :

إذا ما لم تجد إبلا فمعزى كأن قرون جلتها العصى
إذا ماقام حالبها أرنت كأن القوم صبحهم نعى
فحملاً بيتنا أقطا و سمنا وحسبك من غنى شبع وري(١)

والذين عابوا امرأ القيس في هذه الأبيات من قدامى النقاد — إنما عابوه فيما يظهر لأنهم قرنوها ببيتيه المشهورين : ولو أن ماأسعى لأدنى معيشة . . . ، فرأوه هنا بعيد الهمة ، عظيم الخطر ، ورأوه هناك كما وصفوه . أعرابيا في شمله ، لاتجاوز همته ماحوت خيمته . ولو أنهم قرنوا هذه الابيات بالحوادث التي تقدمتها ، والمناسبة التي قيلت فيها لتمثل لهم امرؤ القيس كما تمثل لنا : هازئا متهكما ، لاقانطا مستسلما ، ولاتائها قصدا (٢).

ويرى بعض الباحثين من المعاصرين أن امرأ القيس فيما يظهر من حاله كان وثنيا ، لايخلص لوثنيته ، ولايحترمها حق الاحترام (٣). ويستدلون لذلك بأنه وهو منصرف من اليمن صادرا عن قرمل بن الحميم من بنبالة (٤) ، وكان بها صنم تعظمه العرب ، يقال له : ذو الخلصة ، فاستقسم عنده ثلاثا . وكان كلما أجال القداح خرج الناهي ، فلما كانت الثالثة جمع القداح فكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وقال : لو أبوك قتل ماعقتني (٥) .

(١) الاغاني : ٨ : ٦٨ .
(٢) الموشح للمرزباني : ٣٧ (٣) المفصل : ١ : ٥٢
(٤) بلدة خصيبة باليمن ، يقال ان الحجاج ولى عليها فاتاها فاستحقرها فلم يدخلها فقيل : أهون من نبالة على الحجاج .
(٥) الاغاني : ٨ : ٦٨

وعندى أن هذا الحادث وحده لا يكفى دليلا لما استدلوا به عليه ؛ فقد كان الرجل يومئذ حزينا موتورا ، وحانقا مغيظا . قتل أبوه على الصورة المثيرة التى يصفها الرواة ، وسعى اليه الساعون من أهل الرأى والبقيا على السلام ، يبتغون عنده الصلح فى خلال عرضوها عليه ، فأبى إلا الحرب والانتقام ؛ ثقة بقومه ، وإدلالا بما عنده من سلاح وكراع ، وذهابا بنفسه وأبيه عن معرة الفدية والبراء بأى قتيل . فلما جد الجد تخاذل الناس عنه ، وخلوا بينه وبين واتريه قبل أن يبلغ من الثأر ما يريد . فاذا جرت الازلام مع ذلك بما يثبط العزيمة ، ويحض على التراجع والاعراض كانت الخيبة مرة ، وكان وقعها على النفس ولاسيما الشاعرة — عنيفا مثيرا ، لا يبعد أن يخرج بالانسان عن مألوف طبعه وعاداته فى القول والعمل . فامرؤ القيس بما فعل فى هذا الموقف ، وبين هذه العوامل لم يكن بدعا فى كثير من الناس ، وليس الذى فعل يدل على شىء دلالته على الهياج وضيق الحيلة .

وبعد ، فقد رزق امرؤ القيس فى تاريخ الأدب من بعد الصيت ، وتجدد الذكر ، وحفاوة الادباء — ما يكافىء عبقريته ، ويتمق مع سمو منزلته . فما نعرف كتابا فى الادب العام ، أو فى أى فن من فنونه إلا ذكره أو وقف عنده قصدا أو عرضا . ذلك إلى الكتب المؤلفة فى أصناف العلوم الاخرى على النمط المأثور من إيراد الشواهد والنصوص للاحتجاج والتأييد . ولم يكن قدامى المؤلفين فى الادب أو فريق منهم على الاصح حياله رواة جامعين فحسب ، ولكنهم كانوا نقدة دارسين أيضا ، يتناولون بعض أنبائه وأشعاره بالفحص والموازنة ، فما صح لديهم قبلوه ، ومالم يصح نبهوا اليه . ففى شرح المعلقات السبع للزوزنى ، وشرح المعلقات العشر للتبريزى أن أربعة الابيات التى أولها :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل

ليست فى رأى أكثر الرواة من معلقة امرىء القيس ، ولكنها منقولة اليها ومقحمة فيها من شعر تأبط شراً : ويقول صاحب الاغانى عن قصيدة : طرقتك هند بعد طول تجنب . . . ، وهى مما ينسب الى امرىء القيس من شعر .

واظنها منحولة ، لانها لا تشاكل كلام امرىء القيس [١] . . . ويقول أيضا عن قصة انحياز هند بنت حجر الى عوير بن شجنة بعد مقتل أبيها : وقال ابن قتيبة فى خبره إن القصة المذكورة عن عوير كانت مع أبى حنبل وجارية بن مر[٢] . وروى المرزبانى فى الموشح عن الرياشى قال : يقال إن كثيرا من شعر امرىء القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه ، مثل عمرو بن قميئة وغيره [٣] ، ويقول المعرى فى رسالة الغفران على لسان ابن القارح فى حديثه مع امرىء القيس : ياأبا هند ، أخبرنى عن التسميط المنسوب اليك : أصحيح هو عنك ؟ وينشد الذى يرويه بعض الناس :

ياقوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
فى القلب ثم ارتقى فهد بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيقول : والله ماسمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام . ولقد ظلمنى وأساء إلى [٤] . .

ولو علم هؤلاء السادة المحققون أن وجود امرىء القيس كان مثار خلاف أوشك ان تحدثوا عنه ، أو أشاروا اليه . ولكنهم فيما نعلم لم يفعلوا من ذلك شيئا لا تصريحا ولا تلويحا . وما نقصد بهذا أن القدماء قد وفوا امرأ القيس حقه بحثا ونقدا ، فلم يبق للناس من بعدهم الا أن يروا فيه رأيهم ، لاخلاف ولا تعقيب . وانما نقصد أن الشك فى وجوده ، ثم رفض المروى من أنبائه وأشعاره الا شيئا يسيرا من أفكاره ومعانيه [٥] ، على ماله من خطر الشأن ، واتساع الشهرة فى التاريخ جيلا بعد جيل — نقصد أن كلا هذين ليس من القضايا الهينة التى يسهل الفصل فيها على هذا النحو من الاطلاق الذى لاتحفظ معه ولا قيد . أما الشك فى بعض أنبائه أو بعض القصائد المنسوبة اليه ، فأمر يسير على كل حال ، مهما يكن الطريق اليه والرأى فيه .

(١) المصدر نفسه : ٧٠
(٢) المصدر نفسه : ٦٦
(٣) الموشح للمرزبانى : ٣٤
(٤) رسالة الغفران : ١٨٠
(٥) راجع كتاب فى الأدب الجاهلى

صحيح أن الرواة يختلفون قليلا أو كثيرا فى نسبه ، وفى رواية شعره ، وبعض تفاصيل حياته . ولكن ماذا فى هذا ؟ أليس هو الخلاف السائغ المألوف ، الذى يتفق مع منطق الاشياء وأحوال البيئة ؟ بل أليس هو الخلاف الذى لايدعو الى الريبة والحذر فى البحث عن الحقيقة كما يدعو اليها الاتفاق فى بعض الاحيان . ان عصر الشاعر كما لايخفى - كان بعيدا من عصر التدوين ، وأن الناس كانوا طوال هذه الحقبة ولا معول لهم فى المعرفة ونشر الآثار الادبية غير التخمل والرواية . ولايغرب عن البال مبلغ ماتتعرض له الحقيقة حينئذ من ضروب العلل والآفات . ولكن هذا وحده لاينبغى أن يكون مدعاة لشك أو إنكار . فهذه أحاديث الرسول عليه السلام يختلف المحدثون فى روايتها ، وقد يشتد الخلاف بينهم فيها بعض الاحيان ، مع أنهم كانوا فى العناية بها والحرص على ضبط نصوصها بالموضع الذى لامطمع بعده فى زيادة لمستزيد . وقد اتفق الناس على العمل بها ، واستنباط الاحكام منها فى أمور الدين والدنيا جميعاً .

ثم إنه لاتكاد تسلم شخصية من شخصيات التاريخ القديم والحديث من خلاف فى شأن من شئونها العامة أو الخاصة ، مهما تبلغ من الشهرة ، ومهما يبلغ أمرها من الضبط والوضوح . وسيظل هذا دأب الناس أبدا ، رضوا أم لم يرضوا ؛ لاسباب وملابسات بست منا الآن بسبب ، ولا هى مما يتسع له المقام هاهنا . وقصة خروج الفرزدق ، يوم مطير الى ضاحية البصرة ، وحديثه الى النساء اللاتى كن فى القدير اذ ذاك إن لت على شىء فعلى أن الشاعر كان يعلم قصة يوم دارة جلجل ، وأنه رأى حاله مع نساء فى يومه هذا تشبه حال امرىء القيس مع العذارى فى يومه ذاك . أما أنها تدل لى أن الفرزدق هو صاحب غزل يوم دارة جلجل المنسوب الى امرىء القيس فى ملقته فلست أراه رأيا ، ولا أعرف له وجها . فأين الاستشهاد بشىء والحديث ه من مقارفة فعله ؟ ان هذا شىء وذاك شىء آخر ، والفرق بينهما كبير . ولو صح يكونا شيئا واحدا ، أو شيئين متلازمين للزم أن يكون كل من تحدث عن عمل من مال امرىء القيس أورى شيئا من شعره يكون هو صاحب هذا العمل أو ناظم هذا

الشعر . على أنه كيف تصح نسبة هذا الفحش الى الفرزدق وقد كان شاعراً اسلامياً والدولة القائمة عربية محافظة على خصائص العرب ، ولا تصح نسبته الى امرىء القيس وقد كان شاباً جاهلياً فارغاً ، لفظاً أبوه وأقصاه عنه ، لما رأى من تهالكه على النساء وانصرافه عن معالي الملك الى المجانة واللهو ؟ ومع ذلك لا نرى مشابهة هناك بين شعري الشاعرين في الطريقة والاسلوب

أما القصص الغزلي الذي في شعر امرىء القيس فشبيه ولا شك بقصص عمر بن أبي ربيعة في شعره ، ولكنه ليس به ولا من صنع صاحبه ، وانما كان خطوة سابقة في هذا المذهب رخطاها امرؤ القيس ، وأعجبت عمر ، فقصد قصدها ، وأضاف اليها خطوات وخطوات ، كما ذكرنا في صدر هذا المقال . فلكل من الشاعرين أسلوب متميز يدل عليه ، وأسماء خاصة يذكرها في تشبيبه ، وبحور معينة يؤثر موسيقاها ، ويستكثر من النظم على أوزانها . والشعر الذي ينسبه الثقات الى امرىء القيس يفسر حياته ، ويلائمها ملاءمة ملحوظة (١) ، ويجري في جملته على أنماط متشابهة من طرائق التفكير ومآخذ الخيال ومذاهب الإبانة والتعبير .

وشيء آخر يدل على وجود الشاعر ، وتسلسل أنبائه وأشعاره الى عصر التدوين والتصنيف : أنه قد جرى ذكره في بعض أحاديث الرسول وفتاوى الإمام علي في الشعر فقد خرج أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء الى النار (٢) . وسئل علي رضي الله عنه : من أشعر الشعراء ؟ فقال : ان القوم لم يجروا في حلبة تعرف الغاية عند قصبتها ، فان كان ولا بد فالملك الضليل (٣) .

---

(١) انظر الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي

(٢) مختصر شرح الشواهد للعيني : ٨

(٣) جمهرة الامثال : ١٧٣

وهيهات أن يحكم الرسول هذا الحكم ، وأن يجيب على هذا الجواب عن شخص ليس له وجود سابق وليست له أنباء معروفة ، ولا أشعار مروية . وإلا فكيف يسيطر شخص من عالم الوهم والخرافة على أشخاص من عالم الواقع والحقيقة ، فيقودهم إلى النار على ماجاء فى حديث الرسول ، ويكون له السبق فيهم حين المفاضلة والتميز على ماجاء فى فتوى الإمام ؟ ثم كيف يفهم السامعون أسرار حكم الرسول عليه ، وأسرار حكم الإمام له إذا كانوا لايعرفون عنه أنباء ولا يروون له أشعارا؟

إذا لقد وصلت أشعار امرىء القيس وأنباء حياته إلى مبعث النبى ﷺ ، ثم إلى السن التى بلغ فيها على رضى الله عنه مبلغ الفتيا فى الشعر والمفاضلة بين الشعراء لم تذهب بها الأحداث ، أو يطغ عليها النسيان أو ينقطع بها التسلسل حتى حين هدأ الشعر وفترت حركته ، بسبب انصراف الأذهان إلى الدين الجديد ، واشتغال الناس بنشر مبادئه ، وتأسيس دولته . فقد روى صاحب العقد الفريد (١) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا خلوا فى مجالسهم يتناشدون الشعر ، ويتحدثون بأخبار الجاهلية . فأولى إذا أن تصل هذه الأنباء والأشعار بعد عصر الخلفاء الراشدين وعودة الشعر إلى يقظته ونشاطه إلى عصر التدوين والتصنيف

ومن الخير أن نختم هذا البحث بملاحظة قيمة للكاتب الأديب الأستاذ محمد هاشم عطية . قال : ولئن جاز فى عقل أحد أن يشك فى شىء من هذه الأشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق الشك اليهم أو تتصل التهمة بحياتهم . ولقد روى شعره ثمانية من ثقات الرواة ، ودونوه وتناولوه بالانتقاد والشرح ، منهم أبو عمرو ابن العلاء أحد القراء السبعة ، وأبو سعيد بن قريب الأصمعى ، والإمام ابن السكيت وغيرهم (٢) .

على النجدى ناصف
مدرس بدار العلوم

(١) العقد الفريد : ٣ : ٤٧
(٢) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى : ١٦٠